# المحاضرة الثانية: القضية الفلسطينية في الشعر العربي الحديث والمعاصر

**تمهيد:**

تعد القضية الفلسطينية في الشعر الحديث والمعاصر من أكثر القضايا حضورا وعمقا في الوجدان الشعري العربي، إذ تجاوزت كونها حدثا سياسيا الى رمز مركزي للهوية والحرية والمقاومة والعدالة الإنسانية، وقد أسهم الشعر الحديث والمعاصر في تحويل فلسطين الى فضاء رمزي تتقاطع فيه التجربة الفردية بالهم الجمعي، والتاريخي بالإنساني.

**- تحول الرؤية الشعرية:**

مع بدايات الشعر الحديث في منتصف القرن العشرين، انتقل تناول القضية الفلسطينية من الخطاب الخطابي المباشر إلى التجربة الشعرية المركبة، حيث تراجعت المباشرة والشعارات، وبرز الرمز والأسطورة والتناص، واتسعت الدلالة لتشمل المنفى والذاكرة والهوية المكسورة. وقد صورت فلسطين بوصفها فعلا مقاوما مستمرا لا مجرد ارض محتلة، واتخذت القصيدة شكل النداء ثم تحولت الى بناء جمالي للمقاومة.

كذلك شكل المنفى تجربة مركزية خاصة لدى شعراء الداخل والشتات، حيث تحولت القصيدة إلى وطن بديل.

كما برز استدعاء القرية والزيتون والام والبيت والاسماء الاولى بوصفها علامات لتثبيت الهوية في مواجهة المحو والنسيان، واستخدمت الأساطير مثل تموز والمسيح والعنقاء لتكثيف الماساة وإضفاء بعد كوني على التجربة الفلسطينية.

ويمكن القول إن فلسطين لم تعد شأنا عربيا فحسب بل غدت قضية إنسانية، وهو ما أتاح للقصيدة أن تخاطب الضمير العالمي.

**فلسطين في الشعر المعاصر:**

تمركزت فلسطين في صميم الشعر العربي المعاصر، حيث مثلت خلال القرن العشرين أرضا خصبة في وجدان الأمة العربية فيما عرف بأدب القضية، وفي المقابل مثّل الكيان الصهيوني الذي اغتصبها وما أنتجه من مؤامرات مستنقعاً آسناً بالعداء اللدود للوطن والأمة والإسلام والإنسانية، من هنا لا يكاد يخلو ديوان شاعر عربي من قصيدة أو قصائد تتناول فلسطين مأساةً وأملاً في التحرير، بل هناك دواوين كثيرة خصصت لفلسطين دون غيرها.

تبدو البداية لافتة في شعر علي محمود طه، في ثلاثينات القرن الماضي، وهو يحذر من الظلم الذي يقع على فلسطين.

ويقول صالح الأشتر في كتابه «مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر»: "ومنحت القضية في فلسطين الأدب العربي ديواناً دموياً ضخماً، كتبت الحروب الصليبية صفحاتها الأولى، وهو لا يزال إلى اليوم في تضخم مستمر، وكلما تضخم الديوان ازدادت ملحمة الدم العربية في فلسطين غنى واتساعا"، لذلك يرى الأشتر أن مأساة فلسطين أعظم تجربة يعانيها الأدب العربي المعاصر، وأنها أغنت العنصر العاطفي في الشعر، فانطلقت قصائد النكبة مفعمة بالألم والدموع، ودفعت الشعراء إلى التطوير والتجديد والحياة من خلال ثورة الشعر الجديد على التقاليد الشعرية القديمة، وألزمت الشعر العربي المعاصر على وجه العموم بالاتجاه الالتزامي الهادف، من خلال نبذ طريقة الفن من أجل الفن في الشعر أو في غيره من الأجناس الأدبية والفنية الأخرى.

تعددت صور فلسطين في الشعر، فهي الأرض المغتصبة، والزمن المفقود، واللغة الدامية، والرموز والدلالات المتعددة، والشخصية الضائعة الغريبة، وعدوها غول يلتهم الأرض والزمن واللغة والشخصية، وناسها مرابطون، يعانون تحت احتلال استيطاني صهيوني يجتث الجذور، أو في المنافي والمخيمات يعانون الضياع والاغتراب. فعلى الرغم من مأساة فلسطين التي تقطر دماً منذ نشأتها إلى اليوم، إلى الحد الذي يشعر فيه الناس بفقدان الأمل، فإنّ الشعر العربي يصر على التفاؤل والإيمان بالمستقبل المشرق.

حيث يقول نزار قباني من قصيدة بعنوان (بكيت حتى انتهت الدموع):

يا قدسُ، يا مدينةَ الأحزان

يا دمعةً كبيرةً تجولُ في الأجفان

من يوقفُ العدوان؟ عليكِ، يا لؤلؤةَ الأديان

من يغسلُ الدماءَ عن حجارةِ الجدران؟

من ينقذُ الإنجيل؟ من ينقذُ القرآن؟

من ينقذُ المسيحَ ممن قتلوا المسيح؟

من ينقذُ الإنسان؟

تقوم القصيدة على تصوير القدس بوصفها مدينة جريحة، تختزل احزان الامة كلها، فلا تبدو مجرد مكان جغرافي، بل كائنا حيا يبكي ويتألم. ويتحول السؤال الشعري المتكرر الى صرخة احتجاج وعجز في آن واحد، تكشف صمت العالم العربي والانساني امام العدوان.

أما توفيق زياد فلا يكتفي بالأمنية والرغبة للبقاء في أرضه، وإنما ينادي بالثورة من أجل المحافظة على بقائه ووجوده فوقها معززا مكرما وذلك حين يقول:

إن يحبسونا... إنهم

لن يحبسوا نار الكفاح

لن يحبسوا عزم الشباب الحر

يعصف كالرياح

لن يحبسوا أغنية

تعلو على هذي البطاح

شرقية، عربية الألحان،

حمراء الجناح

لا ينفع في رأي الشاعر إلا الثورة، لأن المحتل يجهل أن سجن الأرض والناس لا يمنع الدم من أن يطهر البطاح كلها، وأن هذه الثورة يشارك فيها الشرقي والعربي، لأن الأمة العربية جسد واحد وكل متكامل لا تمزقه الأحوال مهما عظمت.

ومن خضم نيران الثورة المشتعلة، ومن حمأة الأشلاء والدماء بالجزائر تهز الذكرى الثالثة عشرة لتقسيم فلسطين الشاعر الجزائري مفدي زكريا مقدما هذه المشاعر على شكل حوارية بينه وبين فلسطين فيلتفت إليها، ويعبر عن مشاعره تجاهها، وبين العرب وفلسطين، فيقول :

أناديك في الصرصر العاتية وبين قواصفها النارية

وأدعوك بين أزير الوغى وبين جماجمها الجاثية

وأذكر جرحك في حربنا وفي ثورة المغرب القانية

ويا قدسا باعه آدم كما باع جنته الغالية

واضحى ابنه بين اخوانه يلقبه العرب بالجالية

فلسطين والعرب في سكرة قد انحدروا بك للهاوية

وهذه الحالة المزرية التي وصلت إليها فلسطين تأثر بها كل الشعراء المحدثين وانعكست في واقعهم الشعري الذي غلبت عليه نغمة الحزن والكآبة والتجهم، حيث يقول أدونيس:

أبحث في مملكة الرقاد

عن وجهك المدفون، يا بلادي.

كذلك شكلت فلسطين ديوان شعرائها من أبنائها، فهي ديوان الشاعر المقيم تحت الاحتلال، وهي ديوان الشاعر المشرد في المخيمات والمنافي، فكان على رأس هؤلاء الشعراء: إبراهيم طوقان، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وعز الدين المناصرة، وتوفيق زياد، وكمال ناصر، ويوسف الخطيب، وفدوى طوقان، وإبراهيم نصر الله، ومريد البرغوثي، وتوفيق صايغ، وأحمد دحبور، ومعين بسيسو، وسلمى الخضراء الجيوسي، وراشد حسين.. وغيرهم ممن يعدون بالآلاف.

مثلما نجده عند شاعر القضية" محمود درويش"، حين يقول :

إنا تعلمنا البكاء بلا دموع

وقراءة الأسوار والأسلاك والقمر الحزين

حرية

وحماية

ورضا يسوع

وكتابة الأسماء :

عائشة تودع زوجها

وتعيش عائشة

تعيش روائح الدم والندى والياسمين .

مفارقة عجيبة يوردها درويش في هذه المقطوعة، أين يؤكد أنهم إذا ما أفلتوا من ظلمة النفي والغربة واللجوء، فإنهم لايتوانون لحظة في العودة إلى حضن الأرض الدافئ، حيث يتقنون فن الأسر وخروجه والبكاء والوداع والحياة، بين أشلاء القتلى وروائح الدم.

ويعبر الشاعر حسين راشد عن المأساة الاجتماعية للشعب الفلسطيني في الخيام، وتحت وطأة الأغلال وسياط الجند والموت المحتم، وكذا وضعهم المأساوي جراء انتشار جيوش القمل وصديد الجروح... وغيرها، فيقول:

في الخيام السود، في الأغلال، في ظلال جهنم

سجنوا شعبي وأوصوه ألا يتكلم

هددوه بسياط الجند، بالموت المحتم

ومضوا عنه وقالوا عش سعيدا في جهنم

لن تصبر الخيمة السوداء في المهجر قصرا

وصديد الجرح والإعياء لن يصبح عطرا

وجيوش القمل لن تصبح للأيتام خمرا

إنها تحفز للاجئ قبرا في جهنم .

ولعل الشاعر المعاصر حين ينطلق في مواقفه من القضايا الاجتماعية والمعيشية فإن في اعتقاده أن له الحق في الحياة الحرة الكريمة، والتمسك بالديمقراطية التي يراها حقا من حقوق الأفراد والجماعات لكسب لقمة العيش والتعبير عن وجوده بالذات، ثم إن للكاتب شأنا آخر، فالقراءة مثلا لازمة للكتابة ومناقشة الأصدقاء لا غنى عنها، وتوطين النفس على الورقة والقلم دربة يدوية لابد منها، هذه العوامل الثلاثة: القراءة والمناقشة وتوطين النفس أمامها عقبات كثيرة، والكاتب يخوض نضالا حقيقيا حين يمارس الكتابة الآن

وختاما يمكن القول إن الشعر العربي، وخاصة الشعر الفلسطيني، استطاع ترسيخ وبناء هوية ثقافية عربية مقاومة للاحتلال، ومجسدة عن طريق اللغة واقع الاحتلال المرير، بروح ثورية فلسطينية تقاوم بكل السبل، وتؤمن بحتمية الانتصار على هذا العدو.